الأديب أسامة الشاذلي يطرح أسئلة تتعلق بالبحث عن الهوية.. والأحداث تدور بين أعوام 1146ـ 1161 م وتتوزع أماكنها ما بين الجنوب والوسط والشمال المصري

رواية «عهد دميانة».. وفن تخييل التاريخ

نص بديع صال فيه كاتبه وجال وليست مجرد متن يُحكى أو سطور تتعرض لفترة مهمة من تاريخ مصر في نهاية عصر الدولة الفاطمية

تجربة إنسانية شاملة للبحث عن الهوية وهي بحث عن الوطن وحكاية من حكايات الماضي التي ربما تلقي بظلها على الحاضر المعاصر

ربما أراد الشاذلي أن يؤكد لنا على مجموعة من المعاني وقد أدرك أن جوهر الإنسان لا يحده جسد ولا دين لأن حدوده هي حدود الكون ومنتهاه إلى خالق أبدعه

بقلم : محمد جراح
كاتب روائي وإعلامي مصري
Garrah1959@gmail.com

د. أسامة الشاذلي

الأديب والناقد والإعلامي محمد جراح آل جراح

- اشتريت بغلة ولم تلد يا أبانا.
-البغال لا تلد يا «جرجس».
-ولكن بغلةٍ جاري «سعدان» وطأها حصان عربي، ووضعت بغلا وليداً!
- البغال لا تلد يا «جرجس»، لعلها كانت أتاناً أو مهرة.
- أقسم بالعذراء إني قد رأيتها وهي تضع وليدها، ويعيرني «سعدان» ببركة الشيخ عبادة « على قريتهم.
- وماذا تريد مني يا «جرجس»؟
- نذرت شمعة لأمنا البتول، وأرجو أن تدعو لي كي تلد بغلتي.
- إذا قابلك جارك هذا فقل لـــه إن بغال الأقباط لا تطؤها أحصنة العرب!

في روايته «عهد دميانة» يطرح الكاتب د. أســـامة الشاذلي مجموعة من الأسئلة أو الرسائل التي تتعلق بالبحث عن الهوية والانتماء لوطن صار أهله غرباء عليه منذ سقط لواء دولتهم، وتخبطتهم الظروف بين طامع وغاشم، فإذا كان حكم «الفراعنة» قد سقط، وإذا كان قد جلس على العرش الأغراب، فإن الأهالي قد انتهى بهم الأمر في النهاية أن استبدلوا محتلا بمحتل، ومستبدا بمستبدٍ جديد، وكأنما قد كتب عليهم أن يدوروا في حلقة مفرغة، ويظـــل أمرهم ليس في أيديهم منذ استبدلوا حرف لغتهم بالحرف اليوناني، فاستعجم عليهم تاريخهم وعجزوا عن فهم ما يعنيه!

يـــشير الحوار الذي عرضنـــاه في البداية أن الكاتب ربما أراد أن يؤكد برمزية المثال إلى استحالة الامتزاج والانصهار بين أبناء البلاد الاقباط، وبين الوافدين من العرب المسلمين، على الرغم من مثال آخر عرضته الرواية لشخصية «بشارة» ذلك القبطي الذي أسلم وسكن قرية «الشيخ عبادة» بصعيد مصر، وهو خال «وسن» الفتاة القبطية التي تدور حولها أحداث الرواية التي كتبت بحنكة ورشاد. وربما ترسم تلك الصورة الحيرة التي عاشها المصريون في ذلك الزمن، وربما يجافي ما أشار إليه الكاتب الواقع؛ فقد أســـلم الكثير من المصريين، حتى صاروا أغلبيـــة على بني جلدتهم من المصريين الذين ظلوا على مسيحيتهم، أو حتى على معتقداتهم القديمة، بل عاش المسلمون المصريون مع إخوانهم المسيحيين المصريين في وئام وترابط، يدل عليه تاريخهم الطويل منذ دخل الإسلام إلى أرض الكنانة، وإذا كان من ملاحظات فهي ملاحظات على الحكام ممن تولوا امر الولاية؛ وليست على الإسلام ذاته.

الرواية نص بديع صال فيه كاتبه وجال وهو يستدعي التاريخ ويجعله طوع قلمه، ومن ثم فهي ليست مجرد متن يُحكى، أو سطور تتعرض لفترة من تاريخ مصر هي من الأهمية بمكان لتميزهـــا بالصراع القومي والمذهبي والعرقـــي في نهاية عصر الدولة الفاطمية، لكنها تجربة إنسانية شاملة للبحث عن الهوية بين عشرات الانتماءات التي نعرفها، وهي بحث عن الوطن، وهي حكاية من حكايات الماضي التي ربما تلقي بظلها على الحاضر المعاصر.

تقع الرواية في حـــوالي أربعمائة صفحة من القطع المتوسط للكاتب د. أسامة الشاذلي وهو طبيب وروائي مصري يعمل أستاذاً للجراحة العامة بكلية الطب بجامعة عين شمس، وقد صدرت له من قبل رواية تحمل عنوان «أوراق شمعون المصري» لاقت القبول والاستحسان من جانب القراء والنقاد وقت صدورها.

يستهل الكاتب روايته بمجموعة من التقديمات؛ ففي البداية يكتب على لسان «ابن عربي» مقولته: «أدينُ بدينِ الحب أنىَّ توجهت ركائبُه، فالحبُ ديني وإيماني»، وفي الصفحة التالية يكتب المؤلف عن نفسه: «كوني مصرياً يجعلني أنتمي إلى مائة مليون مصري، وكوني عربياً يجعلني أنتمي إلى نصف مليار عربي، وكوني مسلماً يجعلني أنتمي إلى مليار ونصف مليار مسلم، وكوني إنساناً يجعلني أنتمي إلى ثمانية مليارات من البشر».

وكأن الكاتب بما سأقه في تلك الكلمة يريد أن يؤكد لنا وحدة الإنسانية بعيداً عن أي صراعات أو مصادمات، فالأصل الذي تفرعت منه كل الغصون واحد، وربما أراد أن يؤكد لنا على نداء المحبة الذي من المفروض أن يحكم علاقات الإنسانية، وهو ما عاد ليؤكده في إهدائه الذي قال فيه: «إلى من يسيرون على طريق المحبة، ويبحثون في أنفسهم عن الخلاص، كونوا معافين».

هو إذن رجاء يتمناه الكاتب أن يتعافى كل من سلك طريق المحبة، وأن يتخلصوا أو يبرأوا من أي أدران لحقت أو قد تلحق بنفوسهم الطيبة وأرواحهم الشفيفة.

قصة الرواية

تدور أحداث الرواية بين أعوام 1146ـــ 1161 م، وهي فترة أواخر حكم الدولة الفاطمية، أما أماكنها فتتوزع في عدة أماكن ما بين الجنوب والوسط والشمال المصري، سواء أكان المكان هو مدينة «قوص» ودير «أبي حنس» في «قنا» بجنوب مصر، أو في الفسطاط أو مدينة القاهرة التي أنشأها الفاطميون، أو في الإسكندرية حيث واليها «علي بـــن السرار» الذي تجري في قصره معظم الأحداث، وفيه ولد وتربى وكبر الراوي «يوسف بن صدقة».

شخوص الرواية هم الفتاة «وسن» المتدينة بطبيعتها، وأبوها «مينا» الذي صنع ثروة ميزته عن غيره، فهو صاحـــب الأراضي، وهو مالك معصرة القصب، حيث يصنع فيها العسل الجلاب «المولاس»، وهو ذلك الرجل الذي كان يعتقد ما يقول، ويقول ما يعتقد، فكأنما ملك زمام أمره، وكان كل ما يربطه برجال الســـلطة هي «البرطلة» التي يدفعها للأمراء ليتقيهم، وكان كل ما يربطه بالكنيسة هو «العشور»، وهي نسبة من المال تشـــبه الزكاة أو الضرائب يؤديها بانتظام، غير أنه مع التزامه كان يرى أن معاناة الناس صنعها كلا من لولاة ورجال الدين على السواء.

وقد ظلت علاقته بالكنيسة لا تتعدى تلك الضريبة التي يدفعها، فلم يجلس في مرة إلى مجمرة البخور معترفاً مثل غيره من بني قومه المسيحيين أو ما عرفوا باسم الأقباط (1)، وقد آمن بذاته فاستنكر على القادمين العرب ما ميزوا به أنفسهم على أهل البلاد، ولما نطق بالحق حوكم وجُرِّس وتعذب حتى لقي حتفه جراء جرأته على الرغم من معاقرته للخمر، وعدم التزامه بعقيدته مثل غيره من أهله الذين تمسكوا بها وأصروا عليها.

ولما كان الاحتفـــال بيوم عيد ميلاد المســـيح كانت هناك مباراة بين شاب عربي وأحد الشباب الأقباط، وقد استطاع القبطي الصمود أمام العربي إلى أن قام العربي بضرب القبطي على أصابع اليد التي تحمل العصا فســـقطت عصا الشاب القبطي وقد تكسرت أصابع يده؛ مما دفع «مينا» الذي كان يشاهد تلك المباراة على وصف العربي بالغشاش، وسرعان ما تناقلت الألسن كلمته حتى كانت معركة قتل فيها الشاب العربي، وقد شهد من شهد على «مينا» أنه هو من أشعل الفتنة، فقبض عليه، وقد استدعى الأمر حضور الوالي «شاور بن مجير السعدي»، فاستطاع وأد الفتنة، وقبل أهل القتيل بالدية، وخاطب أهل «قوص» غاضباً: (يا أهل قوص، يا أهل الأدب المنقوص...)، ثم أمر بأن يلبس «مينا» ثياب التشهير والجرسة، ثم يجلد بعدها مائة جلدة بعد أن يربط على عمود بالسوق، ليشهد عقابه الجميع، وظل يرى حتى قبض أنه خزي أن تكون وحيداً في أرضك تتخطفك أيادي الغرباء.

أما الابنة «وسن» فقد تعذبت هي الأخرى بابن عمها «بطرس» الذي يعمل مـــع والدها وأرادها زوجة له، فطلبهـــا من أبيها الذي لم يكن ليمانع في تلك الزيجة لولا أن تمنعت الأبنة؛ ورفضت أن تكون زوجة لذلك الشخص، إذ كانت تميل بطبعها إلى الدير وتواظب على الصلاة فيه، ولما تم التضييـــق عليها رأت في الرهبنة خلاصاً لها من مصير لا تريده، وهو ما جعل العريس ناقماً عليها على الرغم من حبه لها، وقد دفعه طيشه إلى الادعاء عليها بما ليس فيها بعد موت أبيها حتى يظفر بها، ولما رفضته للمرة الثانية وشى بها حتى كان مستقرها في الدير هاربة من واقع تبغضه.

هناك أيضا شخصية «ورد» بنت شنودة تلك الفتاة التي انتزعها تجار الرقيق الأتراك من بين يدي والديها، وباعوها جارية لوالي الإسكندرية «علي بن السرار» الذي تأثر بقصتها فحررها من العبودية، ولما عادت تبحث عـــن أهلها لم يدلها أحد على من تبقى منهم، فعادت وهي الحرة إلى الوالي مرة أخرى لتكون كبيرة على خدمه، ويتقدم العمر بها فتتزوج من الكاتب القبطي بالقصر «صدقة القيسراني»، وتنجب منه ابنها الوحيد يوسف الذي كان له من أدوار الشهامة والبطولة، ما استحق أن تنسج حوله أحداث هذه الرواية الرشيقة.

تربى «يوسف» في قصر الوالي وعمل به، إلى أن استدرجته إلى شباكها «يوســـتينا» زوجة ابن قائد الجند «نصر بن عباس الصنهاجي»، ولما ينكشف أمرهما يطرده، فيقصد الفسطاط هو وأمه، وفي تلك الفترة كان الفرنجة يعاودون الهجوم على أطراف الدولة، وهو الأمر الذي جعل «يوسف بن صدقة» واحداً من الذين اتصلوا بنور الدين محمود، وقد سافر إلى «قوص» التي تجري فيها الأحداث من أجل شراء العسل الجلاب، وتوفير النفط الطيار الذي كانوا يستخدمونه في الرمي على الأعداء، فسكن داراً مهجورة سكنتها من قبل عائلة من أعراب «البجا» الذين كانوا يتاجرون في الإبل، ثم هجروها لما انتقل الميناء من قوص إلى «عيذاب» على البحر الأحمر، ويســـتطيع يوم إقامة حد الجلد على «مينا» أن ينقذ «وسن» ويعيدها بعد علاجها إلى بيتها، ولما ينكشف أمره يجد في البحث عنه «طي» قائد العسس بوشاية من «بطرس»، ومن جديد يُخلِّص يوسف «وسن» من بين أيدي جنود قائد العســـس، وتذهب إلى «دير أبي حنس» وتستطيع أن تقيم بالقرب منه بعد ان تنازلت عن ثروتها للدير ولابن عمها الخائن.

أما «يوســـتينا» زوجة نصر بن عباس الصنهاجي فتســـتطيع الهرب إلى بلدتها «طرسوس» بالشام، وتترك ابنها «الحسين» الذي سيكون سبباً فيما بعد في المصير التراجيدي ليوسف ورفاقه بعد أن استطاع أحد الخدم معرفة أن من خطفه هو يوسف، تسافر «يوستينا» وهي حامل من يوسف وتضع ابنة تختار لها اسم «دميانة»، وهي الطفلة التي أرسلتها إلى أبيها لما اشتد عليها المرض؛ وأدركها الموت، فلا يكون أمام «يوسف» إلا أن يرسلها إلى «وسن» لتتربى في كنفها،

الأثر الذي يحدثه الإنسان في النفوس هو الأبقى ولـن تستمر الحياة مـا لم يتـم تقاسـمها مع الآخرين

الأمل بأن يدرك الناس العدل ولكنه من أسـف لم يدركـوه لأن العدل متوهـم في الدنيا وكفى المرء عدلاً أن ينصر مظلوماً

لم تخلُ الرواية من إشـارات تـدل على بعض ما وقع من ظلم وتمييز بشأن الأقباط لكنها لم تذكر أن كثيرين من الأقباط قد دخلوا في الإسلام طواعية وليس هرباً من الجزية والضرائب

ولتصلها وصية أبيها التي أرسلها لها مع مرسول من الفسطاط، وتعلمها «وسن» بأن أباها الذي لا تتذكره قد مات. كانت الوصيـــة في ورقة بردي موضوعة في صندوق ومعها مفتاح على شكل علامة «عنخ» الشهيرة هو مفتاح داره بالفسطاط وقلادة من الفضة، وقد خاطبت» وســـن» دميانة بقولها: هذا ميراث أبيك يا دميانة.

ربما أراد الكاتب أن يؤكد لنا على مجموعة من المعاني من خلال الأحداث وقد أدرك أن جوهر الإنسان لا يحده جسد ولا دين، لأن حدوده هي حدود الكون، ومنتهاه إلى خالق أبدعه، ويؤكد أن الأثر الذي يحدثه الإنسان في النفوس هو الأبقى، ولن تستمر الحياة ما لم يتم تقاسمها مع الآخرين، وأنه تمنى أن يدرك العدل. ولكنه من أســـف لم يدركه ذلك لأن العدل متوهم في الدنيا، وكفى المرء عدلاً أن ينصر مظلوماً.

كانت الفترة التي جرت فيها احداث الرواية حبلى بالأحداث والصراعات خصوصا الطمع في منصب الوزير الذي قصره الخلفاء الفواطم في أصحاب المذهب الشيعي، ولما كان «علي بن السرار «ممن يسعون إلى نيل اللقب وكان مذهبه السني هو عائقه، واستطاع بقوته أن يجبر الخليفة على اختياره حتى دبر له الخليفة مؤامرة التخلص منه، من خلال «نصر بن عباس» الذي جمعته بالخليفة علاقة شاذة، فانتقم له يوسف هو وصحبه وخرج من القصر بالطفل «الحسين» الذي رآه يبكي وحيداً.

كان «يوسف» ابناً لكل من «ورد» و»صدقة القيسراني»، وورد هذه خطفها الأتراك وباعوها كان لها أخ شقيق هو «إبراهيم النصراني»، الذي ميزه الناس بعقيدته، نظراً لأن كثيراً من المســـلمين كانوا يتسمون باسم «إبراهيم». وقد عمل في تجارة الشمع، وكان من الإيمان والتدين بما يجعله لا يسعى إلى أرباح بقدر ما يبحث عن الرضا في عيون قاصديه، وقد جمعته بمينا والد «وسن» صداقة، وكان له تأثير على «وسن» فتستجيب لتعليماته وإرشاداته؛ وهو الذي فقد أخته مبكراً وضاعت أسرته لاحقاً، فكانت حياته أشبه ما تكون بحياة الرهبان حتى وإن كان يعيش وسط الناس ويمارس كل أفعالهم. وقد عاشت «وســـن» حياة الزاهدين، وربما لم تكن لتمانع أن تكون زوجة ليوسف الذي شغله عنها ما كان فيه من جهاد وصراعات، باعتباره كان مطلوباً لاتصاله بنور الدين محمود من ناحية، ولتورطه في قتل الخليفة من ناحية ثانية، وكانت كلما خطر طيفه على بالها تتذكر مقولته التي تحفظها وتتمنى لو تتحقق (قلبك أرض بكر، ومن يملكه سيرفع رايته عليه ولن يرحل)، لكنه ثبت رايته ولم يستقر، وظل في ترحاله حتى مات متأثراً بجراحه.

لعبت الروايـــة على تيمة صارت ملحوظة في أعمال بعض الكتاب بصورة أو بأخـــرى ألا وهو موضوع البحث عـــن الهوية، وما تعرض له الأقباط من ظلم وتمييز لما اســـتبدلوا الرومان المسيحيين الملكانيين بالعرب المســـلمين، وكأنهم في سعيهم للتخلص من الظلم والاضطهاد الروماني استقدموا وباركوا قدوم مضطهد ومستبد جديد هم العرب، ليظلوا أغراباً في أرضهم ومجرد رعايا في وطنهم.

وإذا كانت الرواية لم تبالغ في ذكر ما وقع بالأقباط من ظلم تحت حكم العرب المسلمين، فإنها لم تخل من إشارات تدل على مثل ذلك الظلم والتمييز مثل مشهد مباراة القبطي مع العربي، أو إقامة الحد على مينا، كما لم تذكر الرواية أن كثيرين من الأقباط قد دخلوا في الإسلام طواعية، وليس هرباً من الجزية والضرائب كما حاول كثيرون أن يوهموا قراءهم بذلك الأمر.

(1) تسمية قبطي تعني مصري مهما كانت ديانته؛ واصل التسمية هي كلمة "آجبة" بمعنى ارض الفيضان، وقد تحرفت الكلمة حتى صارت جبت ثم قبط، وهي الأصل لاسم مصر في اللاتينية إيجبت

رواية عهد دميانة للأديب أسامة الشاذلي

تدور أحداث الرواية في فترة أواخر حكم الدولة الفاطمية